٨

صفوة التفاسير

القسم الثامن

تفسير السور الكريمة

الكهف - مريم - طه

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثامن

تفسير السور الكريمة
الكهف - مريم - طه

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
مَعالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وجَعلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الثالثة

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورةُ الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سورٍ خمس بُدئت بـ « الحمدُ لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلُّها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . . أما الأولى فهي قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

* **والقصة الثانية** : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

* **والقصة الثالثة** : قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة ـ في سبيل هدفها ـ هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هوُ مرتبط بالعقيدة ، **المثل الأول** : للغني المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . **والثاني** : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، **والثالث** : مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . . إلى . . ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٦) .

اللغــة : ﴿باخع﴾ قاتلٌ ومهلكٌ قال الليث : بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصلُ البخع الجهد كما قال الفراء ﴿جُرزاً﴾ الجُرُز : الأرض التي لا نبات عليها ﴿الكهف﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿الرقيم﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شططاً﴾ الشطط : الجور والغلو وتعدي الحد قال الفراء : اشتط في الأمر جاوز الحد ، وشطَّ المنزل بَعُدَ ﴿تزاور﴾ تتنحَّى وتميل من الازورار بمعنى الميل قال عنترة « وازْورَّ من وقع القنا بلبانه » ﴿الوصيد﴾ الفِناء أي فناء الكهف ﴿فجوة﴾ متّسع من المكان ﴿ورقكم﴾ الوَرِق : اسمٌ للفضة سواءً كانت مضروبةً أم لا ﴿أعثرنا﴾ أطلعنا ﴿تمار﴾ تجادل والمراءُ : المجادلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

التفسير : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإِجلال للّه الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ولم يجعل له عِوجاً﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيبٍ أو تناقض ﴿قيّماً﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال الطبري : هذا من المُقدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق[1] ، ﴿لينذر بأساً شديداً من لدُنه﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ أي ويبشّر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ماكثين فيه أبداً﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي : خصَّهم بالذكر وكرَّر الإِنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المُنْذَر به استغناءً بتقدم ذكره[2] ﴿ما لهم به من علم﴾ أي ما لهم بذلك الإفتراء الشنيع شيءٌ من العلم أصلاً ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في

(١) الطبري ١٥/ ١٩٠ . (٢) البيضاوي ٢/ ٢ .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ

بيداء الجهالة والضلالة ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارهم﴾ أي فلعلك قاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمّاً وحزناً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الايمان ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفاً عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة قال القرطبي : الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمنَّ عليك كفرهُم فإنا سنجازيهم[1] ﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ ؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهفُ الغار المتسع في الجبل ، والرقيمُ اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى : لا تظننَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف ـ على غرابتها ـ هي أعجبُ آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب[2] منهم ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾[3] أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك

---

(١) القرطبي ١٠/ ٣٥٤ . (٢) زاد المسير ٥/ ١٠٨ . (٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدةٍ من بلاد الروم تدعى « طرطوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الايمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهُم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا ﴿ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثةٌ أسنانكم وقد أخّرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع =

لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم

الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وهيىءْ لنا من أمرنا رشَداً﴾ أي أصلح لنا أمرنا كلَّه واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بعثناهم لِنعلم أيُّ الحِزْبين أحْصى لما لبِثُوا أمداً﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أيُّ الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف ؟ قال في التسهيل : والمراد بالحزبين : أصحابُ الكهف ، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم[1] وقال مجاهد : الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم : يوماً أو بعض يوم وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم[2] ، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادةٍ ولا نقصان ﴿إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق معتزةً بالإيمان ﴿إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لن ندعوا من دونه إلهاً﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لقد قلنا إذاً شطَطاً﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحقَّ ، وحُدنا عن الصواب ، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هؤلاء قومنا

= سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه : لعلي أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً ؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي ، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا مات من قرون عديدة ، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك ـ وكان مؤمناً صالحاً ـ فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبةَ الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس : لنتخذن عليهم مسجداً .

(١) التسهيل ٢ / ١٨٣ . (٢) حاشية الجمل على الجلالين ٣ / ٧ .

مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

﴿اتخذوا من دونه آلهة﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة **﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن﴾** أي هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرض من التحضيض **﴿لولا﴾** التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله[1] **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى **﴿وإذْ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾** أي وإذْ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى **﴿فأووا إلى الكهف﴾** أي التجئوا إلى الكهف **﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾** أي يبسط ربكم ويوسّعْ عليكم رحمته **﴿ويهيء لكم من أمركم مِرفقاً﴾** أي يُسهّل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار **﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاورُ عن كهفهم ذات اليمين﴾** أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين **﴿وإذا غربتْ تقرضهم ذات الشمال﴾** أي وإذا غربت تقطعهم وتُبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامةً لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها **﴿وهم في فجوةٍ منه﴾** أي في متّسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره **﴿ذلك من آيات الله﴾** أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يُقلّبون لأكلتهم الأرض[2] **﴿من يهد الله فهو المهتد﴾** أي من يُوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً **﴿ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه **﴿وتحسبُهم أيقاظاً وهم رقود﴾** أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام **﴿وتُقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾** أي ونقلبهم من

---

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردُّد فيه ولا تلعثم ، إنهم فتيةٌ أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبيّن الطريقان فلا سبيل إلى الإلتقاء ، ولا بدَّ من الفرار بالعقيدة . . إنهم فتية تبيّن لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط؟ إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيّق المظلم يستروحون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فسيح تنتشر فيه الرحمة وتمتد ظلالها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين». الظلال ١٥/ ١٣ .

(٢) الطبري ١٥/ ٢١١ .

رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ

جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وكلبهُم باسطٌ ذراعيه بالوصيد﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسطاً يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لو اطَّلعتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولمُلئت منهم رعباً﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، فرؤيتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قال قائلٌ منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال أحدهم : كم مكثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم قال المفسرون : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قالوا ربكم أعلمُ بما لبثتم﴾ أي قال بعضهم ، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فابعثوا أحدكم بورِقِكم هذه إلى المدينة﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ أي فليختر لنا أحلّ وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وليتلطَّف ولا يُشعرن بكم أحداً﴾ أي وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملَّتهم﴾ أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿ولن تُفْلحوا إذاً أبداً﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخيرٍ أبداً ، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد الله حقٌّ وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها ، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم

أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا

﴿**فقالوا ابنوا عليهم بنياناً**﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علَماً عليهم ﴿**ربهم أعلم بهم**﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً**﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذنَّ على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم**﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿**ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبُهم رجماً بالغيب**﴾ أي ويقول البعض : إنهم خمسةٌ سادسهم الكلب قذفاً بالظنِّ من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿**ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم**﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعةٌ والثامن هو الكلب ﴿**قلْ ربي أعلمُ بعدتهم**﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿**ما يعلمهم إلا قليل**﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعةً إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة[1] قال المفسرون : إن الله تعالى لمّا ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكأنه أقر قائله ثم نبّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب ﴿**فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً**﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقنٍ عالم بحقيقة الخبر ﴿**ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً**﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّ فيما أوحي إليك الكفاية ﴿**ولا تقولنَّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله**﴾ أي لا تقولنَّ لأمرٍ عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال : (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً[2] ﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرةً عظمة الله ﴿**وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً**﴾ أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿**ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً**﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين ، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى ﴿سنين عدداً﴾ ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا**﴾ أي الله أعلم

(١) زاد المسير ٥/ ١٢٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٤١٥ .

﴿تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيمُ الخبير ﴿أبْصِرْ بهِ وأسمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجودٌ ، وما أسمعه لكل مسموع ، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿ولا يُشركُ في حكمه أحداً﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغنيّ عما سواه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يبشر . . وينذر﴾ وبين ﴿يهدي . . ويضلل﴾ وبين ﴿أيقاظاً . . ورقود﴾ وبين ﴿ذات اليمين . . وذات الشمال﴾ .

٢ ـ الطباق المعنوي بين ﴿فضربنا على آذانهم . . ثم بعثناهم﴾ لأن معنى الأول أنمناهم والثاني أيقظناهم .

٣ ـ الجناس الناقص بين ﴿قاموا . . وقالوا﴾ .

٤ ـ الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ لشناعة دعوى الولد لله ، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ عذاباًشديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه ، وهذا من ألطف الفصاحة .

٥ ـ صيغة التعجب ﴿أسمعْ به وأبصِر﴾ .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿باخعٌ نفسك على آثارهم﴾ شبَّه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقته الأحباب فهمَّ بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم .

٧ ـ الاستعارة التبعية ﴿فضربنا على آذانهم﴾ شبّهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك . . إلى قوله . . ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٣) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تُمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان ، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل : المؤمن المعتز بإيمانه ، والكافر وهو صاحب الجنتين ، وما فيها من عبر وعظات ، وفي ثنايا

الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة .

اللغـــة : ﴿ملتحداً﴾ ملجأ وأصله من لحَد إذا مال ، ومن لجأتَ إليه فقد ملتَ إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرطاً﴾ مجاوزاً للحد من قولهم فرسٌ فُرُط إذا كان متقدماً للخيل ، قال الليث : الفُرُط الأمر الذي يفرَّط فيه قال الشاعر :

لقد كلفتني شَطَطاً وأمراً خائباً فُرُطاً[1]

﴿سرادقها﴾ السُّرادق : السور والحائط ﴿المُهل﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة : كل شيءٍ أذبته من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المُهل ﴿سندس﴾ السندس : الرقيق من الحرير ﴿استبرق﴾ الاستبرق : الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر :

تراهنَّ يلبسن المشاعر مرةً واستبرق الديباج طوراً لباسها[2]

﴿الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيَّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حسباناً﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هشيماً﴾ الهشيم : اليابس المتكسر من النبات ﴿نغادر﴾ نترك .

سَبَبُ النّزول : روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء مَن عندك يعنون « بلالاً ، وخباباً ، وصهيباً » وغيرهم فإنا نأنف أن نجتمع بهم ، وتعيِّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم . .﴾[3] الآية .

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

التفسير : ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾ أي إقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يغيِّر أو يبدِّل كلام الله ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ولا تعدُ عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن

(١) التفسير الكبير ٢١/١١٨ . (٢) البحر ٦/ ٩٤ . (٣) التفسير الكبير ٢١/ ١١٥ .

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[1] ﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا قال المفسرون : نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه أتى النبيﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عُيينة للنبيﷺ : أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادةُ مضر وأشرافُها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهمْ عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهمَّ رسول اللهﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول اللهﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال (الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم) ﴿واتَّبع هواه﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وكان أمره فُرُطاً﴾ أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ظاهرُه أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرَادقها﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أُغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذا قَرُب منهم من شدة حره وفي الحديث (ماءٌ كعكر الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروة وجهه فيه)[2] أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُحلَّون فيها من أساور من ذهب﴾ أي يُحلَّون في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار

(١) المختصر ٢/ ٤١٦ . (٢) أخرجه أحمد والترمذي .

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ

من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وقال ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ وفي الحديث(تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء)﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾أي وهم رافلون في ألوانٍ من الحرير ، برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق قال الطبري : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب ، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رقَّ من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثَخُن[1] ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور قال ابن عباس : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكلَّلة بالدُر والياقوت عليها الحجال ، الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية[2] ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿واضربْ لهم مثلاً رجلين﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانينِ من شجر العنب، مثمريْن بأنواع العنب اللذيذ ﴿وحففناهما بنخل﴾ أي أحطناهما بسياجٍ من شجر النخيل ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منْظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كلتا الجنتين آتت أُكُلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي كلٌّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً﴿وفجَّرنا خلالهما نهراً﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وكان له ثَمر﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخدماً ﴿ودخل جنته وهو

(١) الطبري ١٥/٢٤٣ . (٢) القرطبي ١٠/٣٩٨ .

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ظالـم لنفسـه﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿قـال ما أظنُّ أنْ تبيـدَ هـذه أبـداً﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبداً ﴿ومـا أظـن الساعـة قائمـة﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿ولـئن رددتُ إلـى ربي لأجدنَّ خيـراً منهـا﴾ أي ولئن كان هنـاك بعـثٌ ـ على سبيل الفرض والتقدير كما تزعمُ ـ فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿منقلبـاً﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿قـال لـه صاحبه وهـو يحاوره﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿أكفـرت بالـذي خلقـك مـن تراب ثم مـن نطفـة ثم سوّاك رجـلاً﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من منيّ ثم سوّاك إنساناً سوياً ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿لكنّـا هـو اللهُ ربـي﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿ولا أُشرك بربـي أحـداً﴾ أي لا أُشرك مع الله غيره ، فهو المعبودُ وحده لا شريك له ﴿ولـولا إذ دخلـتَ جنتـك قلـت ما شـاء اللـه﴾ أي فهلاً حيـن دخلتَ حديقتك وأُعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : هذا من فضل الله ، فما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لا قـوة إلا بالـله﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿إنْ تـرنِ أنـا أقلَّ منـكَ مالاً وولـداً﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك ﴿فعسـى ربـي أن يؤتيـن خيراً من جنتك﴾ جواب الشرط أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرّب بستانك ﴿ويرسـل عليهـا حسبانـاً مـن السمـاء﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها ﴿فتصبـح صعيـداً زلَقـاً﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿أو يصبـح ماؤهـا غـوراً فلـن تستطيع لـه طلباً﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته وردّه ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقّق رجاءُ المؤمـن بزوال النعيم عن الكافـر ،

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار الى مشهد البوار والدمار ﴿وأحيط بثمره﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فأصبح يُقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال القرطبي : أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من النادم ﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾ أي مهشّمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿ويقول يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى ﴿ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وما كان منتصراً﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هنالك الولايةُ للهِ الحقّ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه ﴿هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض﴾ هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول ﴿والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالحٍ من قول أو فعلٍ يبقى للآخرة[1] وفي الحديث (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله .

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ

الله ، والله أكبر ، هنَّ الباقيات الصالحات) ﴿ويوم نسيِّر الجبال﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيِّرها كما نسيِّر السحاب فنجعلها هباءً منبثاً ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم ﴿وعُرضوا على ربك صفاً﴾ أي عُرضوا على رب العالمين مصطفّين ، لا يحجبُ أحدٌ أحداً وفي الحديث (يجمع الله الأولين والآخرين في صَعيدٍ واحدٍ صفوفاً) قال مقاتل : يُعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرةٍ صفاً[1] ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاةً عراةً لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بل زعمتم ألَّن نجعل لكم موعداً﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب ﴿ووُضع الكتاب﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا يعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا يُنقص من ثواب المحسن ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة[2] ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم

(١) القرطبي ١٠/٤١٧ .

(٢) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن ابليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

﴿لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝﴾

أعداء ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وما كنتُ متخذَ المضلين عضُداً﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني ؟ ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : أُدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكةً لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿الغداة . . والعشي﴾ وبين ﴿فليؤمن . . فليكفر﴾ .

٢ ـ المقابلة البديعة بين الجنة ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ والنار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ .

٣ ـ التشبيه ﴿بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ ويسمى مرسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه .

٤ ـ التشبيه التمثيلي ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه﴾ .

٥ ـ المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً .

٦ ـ الكناية ﴿يقلِّب كفيه﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .

٧ ـ الإنكار والتعجيب ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ ؟ .

تنبيه : الجمهور على أن الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسري بي فقال يا محمد :

أقرىءْ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذي .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل . . إلى . . ما لم تسطِع عليه صبراً﴾ من آية (٥٤) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسَبَة : لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين ، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل ، نبَّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي « العظةُ والاعتبار » ثم ذكر القصة الثالثة « قصة موسى مع الخضر » وما فيها من أمور غيبيَّة عجيبة .

اللغَة : ﴿قبُلاً﴾ مقابلةً وعياناً ﴿موئلاً﴾ ملجأ ومنجى قال ابن قتيبة : وأل فلان إلى كذا لجأ إليه وألأً ووءولاً والموئل : الملجأ قال الأعشى :

وقد أخالِسُ ربَّ البيت غفلتَه ... وقد يحاذِرُ مني ثم لا يئلُ[1]

﴿حُقُباً﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿سرَباً﴾ السَّرب : المسلك في جوف الأرض ﴿نَصباً﴾ النَّصب : التعب والمشقة ﴿إمْراً﴾ أمراً عظيماً يقال : أمِر الأمر إذا عظم ﴿نُكراً﴾ منكراً فظيعاً جداً .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا

التفسِير : ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكرَّرنا الحجج والمواعظ ﴿وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جدلاً﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدلُ والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدى﴾ أي ما منع الناسَ من الإيمان حين جاءهم الهُدى من الله ﴿ويستغفروا ربَّهم﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إلاّ أن تأتيهم سنةُ الأولين﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[2] ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار ، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿ويجادلُ الذين كفروا بالباطل

(١) البحر المحيط ٦/ ١٣٢ . (٢) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير ، كذا في المختصر ٢/ ٤٢٥ .

هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا

ليُدْحضوا به الحق﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الايمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿ واتَّخذوا آياتي وما أُنذروا هُـزُواً﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوِّفوا به من العذاب سخرية واستهزاءً ﴿ومنْ أظلمُ ممَّنْ ذُكر بآياتِ ربهِ فأعرض عنها﴾ أي لا أحد أظلمُ ممن وُعظ بآيات الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يُلقِ لها بالاً ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي وفي آذانهم صمماً معنوياً يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾ أي وإن دعوتهم إلى الايمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الايمان وهؤلاء كالأنعام ﴿وربُّك الغفورُ ذو الرحمة﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب﴾ أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرامَ لعجَّل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يهمله ﴿بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون ؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش قال ابن كثير : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبيٍّ وأشرف رسول ، ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونُذري[1] ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال

(١) مختصر ابن كثير ٢/٤٢٦ .

قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

موسى الكليم لفتاه « يوشع بن نون » لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل الى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين[١] ﴿أو أمضيَ حُقُباً﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكْتل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح ﴿فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً قال المفسرون : كان الحوت مشوياً فخرج من المِكْتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أي فلما قطعا ذلك المكان وهومجمع البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة قال موسى لفتاه أعطنا طعام الغداء ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿قال أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت﴾ أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوتُ من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيتُ أن أذكر لك ذلك حين استيقظتَ ﴿وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي واتخذ الحوتُ طريقه في البحر وكان أمره عجباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قال ذلك ما كنا نبغ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقْيا الرجل الصالح فارتدا على آثارهما قَصَصاً أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق ﴿فوجَدَا عبداً من عبادنا﴾ أي وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت ، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجًّى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنّى بأرضك السلام[٢] ؟ ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه[٣] ﴿وعلمناه من لدنَّا علماً﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يُعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء :

(١) هكذا نقل الطبري عن قتادة ١٥/ ٢٧١ . (٢) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله . (٣) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق فضل العبودية .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾
قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ

هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدُنِّي » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة **﴿قال له موسى هل أتَّبعك على أنْ تُعلمن ممّا عُلمتَ رُشْداً﴾** أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي ؟ قال المفسرون : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه **﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾** أي قال الخضر : إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي **﴿وكيف تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً﴾** أي كيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه ؟ **﴿قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾** أي قال موسى ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله **﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً﴾** شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعايةً لأدب المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبيّنه لك بنفسي **﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾** أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر **﴿قال أخرقتها لتغرق أهلها﴾** أي قال له موسى مستنكراً : أخرقت السفينة لتغرق الركاب ؟ **﴿لقد جئت شيئاً إمْراً﴾** أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر : قومٌ حملونا بغير أجرٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً ! ! **﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾** أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي ؟ ذكَّره بلطفٍ في مخالفته الشرط **﴿قال لا تؤاخذني بما نسيتُ﴾** أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد **﴿ولا تُرهقني من أمري عُسراً﴾** أي لا تكلفني مشقةً في صحبتي إياك وعاملني باليُسر لا بالعُسر **﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾** أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرّا بغلمانٍ يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قال أقتلت نفساً زكيَّةً بغير نفس﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرةً لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿لقد جئتَ شيئاً نُكراً﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه . . لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا ﴿نُكراً﴾ أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿إمْراً﴾ في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّة﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافرٌ لا يؤمن بالله أبداً[1] ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معيَ صبراً﴾ أي ألم أقل لك أنتَ على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ قال المفسرون : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لك﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قد بلغتَ من لدنّي عُذراً﴾ أي قد أعذرت إليَّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس : هي انطاكية فطلبا طعاماً وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً ، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿فوجَدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فأقامه﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌّ عن ابن عباس ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام ! ! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضِفناهم فلم يضيّفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً ! ﴿قال هذا فراقُ بيني وبينك﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليَّ ولم تستطع عليها وفي الحديث (رحم الله

(١) القرطبي ١١/٢٢

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب)[1] ﴿أمَّا السفينة فكانتْ لمساكين يعملون في البحر﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فأردتُ أنْ أعيبها﴾ أي أردتُ بخرقها أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالمٌ ﴿يأخذ كل سفينةٍ غصباً﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ أي وأما الغلام الذي قتلتُه فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث (إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً)[2] ﴿فخشينا أن يُرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي فخفنا أن يحملهما حبُّه على اتّباعه في الكفر والضلال ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقربَ براً ورحمة بوالديه ﴿وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما﴾ أي وأما الجدار الذي بنيتُه دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبيء تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح[3] الوالد قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي ما فعلتُ ما رأيتَ من خرْقِ السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذلك تأويلُ ما لم تسْطِع عليه صبراً﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿مبشرين . . ومنذرين﴾ وبين ﴿نسيت . . وأذكر﴾ .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) رواه مسلم . (٣) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرةً وهو الأرجح .

٢ ـ اللف والنشر المرتَّب ﴿أما السفينةُ﴾ ﴿وأما الغلام﴾ ﴿وأما الجـدار﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.

٣ ـ الحذف بالإيجاز ﴿كل سفينة﴾ أي صالحةٍ حذف لدلالة لفظ « أعيبها » وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وأما الغلام﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فكان أبواه مؤ منين﴾ .

٤ ـ التغليب ﴿أبواه﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه .

٥ ـ الاستعارة ﴿يريد أن ينقضَّ﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز كقول الشاعر :

يريـد الـرمـحُ صـدر أبي براءٍ ويرغـب عـن دمـاء بنـي عقيـل[١]

٦ ـ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عبداً من عبادنا﴾ .

٧ ـ السجع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿نصبَاً ، سرباً ، عَجباً﴾ .

٨ ـ تعليم الأدب ﴿فأردتُ أن أعيبها﴾ وهناك قال ﴿فأراد ربك﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى ، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا .

« قصة موسى والخضر كما في الصحيحين »

عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذْ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتَـل فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ ، فانطلق موسى : ومعه فتاه « يوشع بن نون » حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهمـا فناما واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحـر سرَبـاً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ـ قال ولم يجد موسى النَّـصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ـ فقال فتاه ﴿ أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾قال فكان للحوت سَرَباً ولموسى وفتاه عجبَاً فقال موسى ﴿ ذلك ما كنّـا نبغِ فارتدا على آثارهما قَصصاً ﴾قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجّى بثوب فسلَّـم عليه موسى فقال الخضر : وأنّـى بأرضك السلام[٢] ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رُشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ . .يا موسى إني على علم من علـم الله لا تعلمه علَّمنيه ،

(١) الطبري ١٥/ ٢٨٩ . (٢) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

وأنت على علمٍ من علم الله علَّمكه لا أعلمه ، فقال موسى﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾فقال له الخضر﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً ﴾فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل ـ أي بدون أجر ـ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قومٌ قد حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً﴾وقال رسول اللهﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكـراً﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال سُفيان : وهذه أشدُّ من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدُني عذراً ﴾فانطلقا﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيِّفوهما فوجـدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ﴾فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿لو شـئت لاتخذت عليـه أجـراً﴾ قال الخضر : ﴿هذا فِراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾قال رسول اللهﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما » ! ! أخرجه الشيخان .

تـنبيـه : قال العلامة القرطبي : « كرامات الأنبياء ثابتـة على ما دلـت عليه الأخبـار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبية ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار » أ هـ . القرطبي ١١/٢٨ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين . . إلى . . فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربـه أحـداً﴾ من آية (٨٣) إلى آية (١١٠) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغـرب ، والشرق ، وإلى السَّدين ، وبناؤه للسدِّ في وجه «يأجوج ومأجوج » وهي القصة الرابعـة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة .

اللغَـة : ﴿ذو القرنـين﴾ هو الاسكندر المقدوني[1] وهو ملِكٌ صالح أعطي العلم والحكمـة ، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر :

قـد كان ذو القـرنيـن قبلي مسلمـاً ملـكاً علا فـي الأرض غير مفنَّد

(١) الراجح أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن .

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب مُلْكٍ من كريمٍ سيد[١]

﴿حمئة﴾ كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سداً﴾ السدُّ : الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿ردْماً﴾ الردم . السدُّ المنيع وهو أكبر من السدّ لأن الردم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم الحاجز الحصين المتين ﴿زُبَر الحديد﴾ قطع الحديد مفرده زُبرة وهي القطعة ﴿الصدفين﴾ جانبا الجبل قال أبو عبيدة : الصَّدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قِطراً﴾ القِطر : النحاس المذاب ﴿نقْباً﴾ خرقاً وثقْباً ﴿دكاء﴾ مدكوكاً مسوًّى بالأرض قال الأزهري : دككته أي دققته ﴿يموج﴾ يختلط ويضطرب ﴿الفردوس﴾ قال الفراء : البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب : كل بستان يحوَّط عليه فهو فردوس[٢] .

سَبَبُ النّزول : أ ـ قال قتادة : إن اليهود سألوا النبيﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿ويسألونك عن ذي القرنين . . ﴾ الآية[٣] .

ب ـ قال مجاهد : جاء رجل إلى النبيﷺ فقال يا رسول الله : إني أتصدق ، وأصلُ الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيُذكر ذلك مني وأُحمد عليه فيسرني ذلك وأُعجب به ، فسكت رسول اللهﷺ ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾[٤] .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ

التَفسِير : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه ؟ وما قصته ؟ ﴿قل سأتلوا عليكم منه ذكراً﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآناً ووحياً ﴿إنا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون : ذو القرنين هو « الاسكندر اليوناني » ملكَ المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين ، وكان ملكاً مؤمناً مكّن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمرود وبختنصر[٥] ﴿فأتْبع سبباً﴾ أي سَلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين ـ حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة ـ فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال الرازي : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٦٤ . (٢) البحر ٦/ ١٥٧ . (٣) أسباب النزول ١٧٢ .
(٤) القرطبي ١١/ ٧٠ . (٥) البحر ٦/ ١٥٧ .

قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا

لم ير الشطَّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر[1] **﴿ووجد عندها قوماً﴾** أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام **﴿قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تُعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾** أي قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون : كانوا كفاراً فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيُحسن إليهم **﴿قال أمّا من ظلم فسوفَ نعذِّبه﴾** أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله **﴿ثم يُردُّ إلى ربه فيعذِّبهُ عذاباً نُكراً﴾** أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم **﴿وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى﴾** أي وأمّا من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعَّم فيها **﴿وسنقول له من أمرنا يُسْراً﴾** أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسَّر اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة ، والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة **﴿ثم أتبع سبَباً﴾** أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق **﴿حتى إذا بلغ مطْلِعَ الشمس﴾** أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي **﴿وجدها تطلُعُ على قومٍ لم نجعلْ لهمْ من دونها سِتراً﴾** أي وجد الشمس تشرقُ على أقوامٍ ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غربتْ خرجوا لمكاسبهم قال قتادة : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلاّ من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراةً ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم ، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج[2] **﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْراً﴾** أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمرُه من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير **﴿ثم أتبع سبَباً﴾** أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة **﴿حتى إذا بلغ بين السَّدين﴾** أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري : والسَّدُّ : الحاجز بين الشيئين وهما هنا

(١) التفسير الكبير ٢١/١٦٦ . (٢) زاد المسير ٥/١٨٧ والطبري ١٦/١٤ .

﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

جبلان سُدٌّ ما بينهما ، فردَم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[1] ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعُسر قال المفسرون : إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويهٌ ، منهم مفرطٌ في الطول ، ومنهم مفرطٌ في القِصر[2] - قومٌ مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون : كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فهل نجعل لك خَرْجاً﴾ أي هل نفرض لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي لتجعل سداً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج قال في البحر : هذا استدعاءٌ منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب[3] ﴿قال ما مكنّي فيه ربي خيرٌ﴾ أي ما بسطه الله عليَّ من القُدرة والمُلك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أجعلْ بينكمْ وبينهم ردْماً﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوَّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿آتوني زُبر الحديد﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قال انفخوا﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿قال آتوني أُفرغْ عليه قِطراً﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب قال الرازي : لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً[4] ﴿فما اسْطاعوا أن يَظْهروه﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقْباً﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته ، وبهذا السد المنيع أغلق ذو

---

(١) الطبري ١٦/ ١٥ . (٢) روى ذلك عن علي وابن عباس . (٣) البحر ٦/ ١٦٤ . (٤) التفسير الكبير ٢١/ ١٧٢ .

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾

القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قال هذا رحمةٌ من ربي﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدُّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جعله دكاء﴾ أي جعله الله مستوياً بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة . . وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض ـ لكثرتهم ـ كاضطراب موج البحر ﴿ونُفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحدٍ جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفزعاً ﴿الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود : وهذا تمثيلٌ لإِعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عميٌ صم[1] ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ قال القرطبي : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم[2] ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلاً﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافةً لهم كالنُزُل المعد للضيف قال البيضاوي : وفيه تهكمٌ بهم وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه[3] ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك : هم القسِّيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ أي يظنون أنهم محسنون

(١) أبو السعود ٣/٢٦٧ . (٢) القرطبي ١١/٦٥ . (٣) البيضاوي ٢/١٣ .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

بأفعالهم ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن ، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث (يُؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة)[1] ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُواً﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كانت لهم جنات الفِردوس نُزُلاً﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة : في جنانِ الفِردوس ليسَ يخافون : خرُوجاً عنها ولا تحويلاً ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ هذا تمثيلٌ لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناهٍ كعلمه جل وعلا ﴿ولو جئنا بمثله مَدَداً﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي،وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرائي بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿مطلع . . ومغرب﴾ .

(١) ذكره الحافظ في الفتح ٨/ ٣٢٤ .

٢ ـ التشبيه البليغ ﴿جعله ناراً﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الإحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٣ ـ الاستعارة ﴿يموج في بعض﴾ شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية .

٤ ـ الاستعارة أيضاً ﴿كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكرى﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتُعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق التمثيل.

٥ ـ الجناس الناقص ﴿يحسبون أنهم يُحسنون﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف .

٧ ـ الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أفحسب الذين كفروا﴾ ؟

٨ ـ المقابلة اللطيفة ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى﴾ مقابل ﴿أمّا من ظلم فسوف نعذبه . .﴾ الآية .

لطيفة : كثيراً ما يرد في القرآن لفظ « حبط » وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلأ ثم تلْقى حتفها ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »

* * *



بين يدي السورة

* سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله « زكريا » وولده «يحيى» الذي وهبه على الكبر من امرأةٍ عاقر لا تلد ، ولكنَّ الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة «مريم العذراء» وإنجابها لطفلٍ من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : « إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحا » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدفُ من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها .

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردَّت على ضلالات المشركين بأنصع بيان ، وأقوى برهان .

التسمية : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسانٍ بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

اللغة : ﴿وهَنَ﴾ ضعف يقال وَهَن يهِنُ فهو واهِنٌ والوهنُ ضعفُ القوة ﴿اشتعل﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عاقراً﴾ العاقر : التي لا تلد لكبر سنها ﴿عِتياً﴾ العِتيُّ : النهاية في الكبر واليبس والجفاف يقال : عتا الشيخ كبر وولّى قال الشاعر :

إنما يُعذر الوليدُ ولا يُعذر ... من كان في الزَّمان عِتيّاً[1]

﴿حناناً﴾ الحنان : الشفقة والرحمةُ والمحبةُ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها وحنانَيْك تريد رحمتك قال طرفة :

أبَا منذر أفنيت فاسْتبق بعضَنا ... حنانَيْك بعضُ الشر أهونُ من بعض[2]

﴿انتبذت﴾ ابتعدت وتنحَّتْ ﴿سوياً﴾ مستوي الخلقة ﴿المخاض﴾ اشتداد وجع الولادة والطلق ﴿سرياً﴾ السريُّ : النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فرياً﴾ الفريُّ : العظيم من الأمر .

التفسير : ﴿كهيعص﴾ حروفٌ مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[3] وتقرأ : « كافْ ، هَا ، يَا ، عَيْنْ ، صَادْ » ﴿ذكرُ رحمةِ ربِّك عبْدَه زكريا﴾ أي هذا ذكرُ رحمةِ ربِّك لعبدِهِ زكريا نقصُّه عليك يا محمد ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون : لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿قال ربِّ إني وهَنَ العظم مني﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب : لقد ضعف عظمي ،وذهبتْ قوتي من الكبر ﴿واشْتَعل الرأسُ شيباً﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ولم أكنْ بدعائكَ ربِّ شقياً﴾ أي لم تخيِّب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال البيضاوي : هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حقِّ الكريم أن لا يخيِّب من أطمعه[4] ﴿وإني خِفتُ الموالي من ورائي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ ﴿فهبْ لي من لدنك ولياً﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً

(١) القرطبي ١١/٨٣ . (٢) البحر ٦/١٧٧ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة . (٤) البيضاوي ٢/١٤ .

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً﴾

يتولاني ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال[1] ﴿واجعله ربِّ رضياً﴾ أي اجعله يا رب مرضياً عندك قال الرازي : قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : أحدها : كونه ضعيفاً، والثاني : أن الله ما ردَّ دعاءه البتة، والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة[2] ﴿يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾ ﴿لم نجعلْ له من قبلُ سمياً﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد : ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قال ربِّ أنّى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز ! ! ﴿وقد بلغتُ من الكبر عِتِياً﴾ أي بلغتُ في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال المفسرون : كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة، وامرأتُه ثمانٍ وتسعين سنة، فأراد أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّنٌ﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجادُه سهلٌ يسيرٌ عليَّ ﴿وقد خلقتك من قبلُ ولم تك شيئاً﴾ أي كما خلقتُك من العدم ولم تكُ شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون : ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحدةٌ ﴿كن فيكون﴾ وإنما هو أهونُ في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قال ربِّ اجعلْ لي آية﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويُّ الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة قال ابن عباس : اعتُقِل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم[3] ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك

(١) البيضاوي ٢/ ١٤ . (٢) التفسير الكبير ٢١/ ١٨١ . (٣) الطبري ١٦/ ٥٢ .

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

الصفة ﴿فأوحى إليهم أنْ سبّحوا بكرة وأصيلاً﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيامٍ إلا رمزاً﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السنَّ الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيى خذ التوراة بجدٍ واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعبْ فقال لهم : ما للَّعب خُلقت ، وقيل : أعطي النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال[1] ﴿وحنَاناً من لدنَّا وزكاةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمةً منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿وكان تقياً﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله ، لم يهم بمعصيةٍ قط قال ابن عباس : طاهراً لم يعمل بذنب ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حياً﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية : حيّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله[2] ﴿واذكرْ في الكتاب مريم﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إذِ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيٍّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فاتخذتْ من دونهم حجاباً﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعْدَ الشعر مستوى الخلقة[3] قال المفسرون : إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن[4] ﴿قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيتْ أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت : إني أحتمي

(١) الطبري ١٦/ ٥٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٨٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٢١٧ . (٤) البحر ٦/ ١٨٠ .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

وألتجيء إلى الله منك ، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿قال إنما أنا رسولُ ربِّك لأهبَ لكِ غلاماً زكياً﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا ملكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهبَ لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قالت أنَّى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وعلى أيِّ صفةٍ يوجد هذا الغلام مني ؟ ﴿ولم يمسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ أي ولستُ بذاتِ زوج حتى يأتيني ولد ولستُ بزانية ﴿قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيِّن﴾ أي كذلك الأمر حكم ربِّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإنَّ ذلك على الله سهل يسير ﴿ولنجعله آية للناس ورحمةً منا﴾ أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغيَّر ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿فحملته فانتبذتْ به مكاناً قصياً﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال المفسرون : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت ـ وهو في بطنها ـ مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيرّوها بالولادة من غير زوج ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فألجأها ألم الطَّلْق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسْياً منسياً﴾ أي قالت يا ليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر[١] قال ابن كثير : عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت[٢] ﴿فناداها مِنْ تحتها ألاَّ تحزني﴾ أي فناداها الملك من تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر ﴿قد جعل ربُّك تحتكِ سريّاً﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿تُساقط عليك رُطباً جنياً﴾ أي يتساقط عليك الرُّطب الشهيُّ الطريُّ قال المفسرون : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامةً

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٤٤٨ .

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾

من الله لها ﴿فكلي واشربي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿وقرّي عيناً﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿فإمّا ترينَّ من البشر أحداً﴾ أي فإن رأيتِ أحداً من الناس وسألكِ عن شأن المولود ﴿فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً﴾ أي نذرت السكوتَ والصمت لله تعالى ﴿فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ أي لن أكلّم أحداً من الناس . . أُمِرت بالكفّ عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فأتَتْ به قومها تحملُه﴾ أي أتتْ قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فرياً﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها : لقد جئتِ شيئاً عظيماً مُنكراً ﴿يا أخت هارونَ ما كان أبوك امرء سوء﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿وما كانت أمّكِ بغياً﴾ أي وما كانت أمكِ زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيتٍ طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة ؟ قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها[1] به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي : هارون رجل من عُباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبَّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلاً[2] ﴿فأشارت إليه﴾ أي لم تجبهم وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً﴾ أي قالوا متعجبين : كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه ؟ قال الرازي : روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان[3] ﴿قال إني عبدُ الله﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبدٌ لله خلقني بقدرته من دون أب ، قدّم ذكرالعبودية ،ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدَّ إلا أن يقع ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ أي جعل فيَّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني

(١) الطبري ١٦/ ٧٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٥٠ . (٣) التفسيرالكبير ٢١/ ٢٠٨ .

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي ﴿والسلام عليَّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعث حياً﴾ أي سلام الله عليَّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد . . وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذلك عيسى ابن مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يمترون﴾ أي ذلك هو القول الحقُّ في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكّون في أمره ويمترون ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿سبحانه﴾ أي تنزّه الله عن الولد والشريك ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كنْ فكان ، ولا يحتاج إلى معاناةٍ أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ قال المفسرون : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كن فيكون﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كنْ﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم﴾ أي ومّما أمرَ به عيسى قومَه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أسْمِعْ بهم وأبصرْ يومَ يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ أي لكنْ الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق وخوّفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر إذ لم يزدد من الخير ﴿إذْ قُضي الأمر﴾ أي قُضي أمرُ الله في الناس ، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير ﴿وهم في غفلة﴾ أي وهم اليوم في غفلةٍ سادرون ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إنا نحن

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

نرث الأرض ومن عليها﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وإلينا يُرجعون﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الكناية ﴿وهن العظم مني﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم .

٢ ـ الاستعارة ﴿اشتعل الرأس شيباً﴾ شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية .

٣ ـ الطباق بين ﴿ولد . . ويموت﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿نادى . . نداءً﴾ .

٥ ـ الكناية اللطيفة ﴿ولم يمسسْني بشر﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع .

٦ ـ صيغة التعجب ﴿أسمعْ . . وأبصرْ﴾ .

٧ ـ السجع ﴿سريّاً ، بغياً ، صبياً ، نبياً﴾ وهو من المحسنات البديعة .

تـنـبيـه : في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم محض للحسرة لا شيء فيه سواها ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون ـ أي يمدون أعناقهم ـ وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة . .﴾ الآية) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً . . إلى . . هل تعلم له سمياً﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٥) .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى « قصة مريم » واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله ، أعقبها بذكر « قصة إبراهيم » وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد

الربّ الديّان ، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً ، فالنصارى عبدوا المسيح ، ومشركو العرب عبدوا الأوثان .

اللغــــة : ﴿صدّيقـاً﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصـدق ﴿ملياً﴾ دهـراً طويلاً من قولهم أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر :

فتصـدَّعـت شُـمُّ الجبـال لموتـه وَبكـتْ عليه المُرْمِـلاتُ مليّاً[1]

﴿حفياً﴾ الحفيُّ : المبالغ في البر واللطف به ﴿خلفٌ﴾ الخلف : بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر وبفتحها الذي يخلفه بالخير يقال جعلك الله خير خلفٍ لخير سلف وقال الشاعر :

ذهـب الـذين يُعـاش فـي أكنافهـم وبقيتُ فـيَ خَلْفٍ كجلـد الأجرب[2]

﴿غياً﴾ : شراً وضلالاً قال أهل اللغة : كل شر عند العرب فهو غي ، وكل خير فهو رشاد .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا ؟ فنزلت الآية ﴿وما نتنزل إلا بأمـر ربك . . ﴾ الآية[3] .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

التفسيـــر : ﴿واذكـر فـي الكتاب إبراهيـم﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إنـه كان صِدِّيقاً نبيـاً﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصّديقية والنبوة والغرضُ تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنـه إمـام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتمِ المرسلين ﴿إذ قـال لأبيـه يا أبـتِ لم تعبدُ ما لا يسمـعُ ولا يبصـرُ ولا يغني عنك شيـئاً﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبتِ لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضراً ؟ ﴿يا أبـتِ إنـي قد جاءنـي من العلـم مـا لم يأتـك﴾ كرَّر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فاتبعْنـي أهـدك صراطاً سويـاً﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يا أبـتِ لا تعبـد الشيطـان﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إن الشيطـان كـان للرحمن عصيـاً﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن

(١) البحر ٦/ ١٩٥ . (٢) البيت للبيد كذا في الرازي ٢١/ ٢٣٥ . (٣) أخرجه البخاري .

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا

أطاعه أغواه ، قال القرطبي : وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده[1] ﴿يا أبتِ إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر : وإيراد الكلام بلفظ ﴿يا أبتِ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتَّب إبراهيم الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله ﴿إني أخاف﴾ دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوة[2] ﴿قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي قال له أبوه آزر : أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرفٌ عنها ؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل قال البيضاوي : قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿يا أبتِ﴾ بـ « يا ابني » وقدَّم الخبر وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل[3] ، ثم هدَّده بقوله ﴿لئن لم تنتهِ لأرجمنَّك﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي لأرجمنك بالحجارة ﴿واهجرني ملياً﴾ أي اهجرني دهراً طويلاً قال السديُّ : أبداً . . بهذه الجهالة تلقى « آزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدَّب المهذَّب ،وكذلك شأن الكفر مع الإيمان ، وشأن القلب الذي هذَّبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿قال سلامٌ عليكَ سأستغفر لك ربي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمَّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك لحرمة الأبوَّة ، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك ﴿إنه كان بي حفياً﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿عسى ألاّ أكون بدعاء ربي شقياً﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألاّ يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم . . وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان ، وهجر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذريةً وعوَّضه خيراً ﴿فلما اعتزلهم

(١) القرطبي ١١/١١١ . (٢) التفسير الكبير ٢١/٢٢٦ . (٣) البيضاوي ٢/١٧ .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ قال المفسرون : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوبُ ابن اسحق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير : المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقرَّ الله بهم عينه في حياته بالنبوة[1] ولهذا قال ﴿وكلاً جعلنا نبياً﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ أي أعطينا الجميعَ - إبراهيم وإسحق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي ، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويُصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، قال الطبري : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس[2] ﴿واذكر في الكتاب موسى﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إنه كان مُخلَصاً﴾ أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وقربناه نجياً﴾ أي أدنيناه للمناجاة حين كلمناه قال ابن عباس : أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأقلام[3] قال الزمخشري : شبّهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلّمه بغير واسطة ملك ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي﴾ جعلناه له عضُداً وناصراً ومعيناً ﴿واذكر في الكتاب اسماعيل﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك « إسماعيل » الذبيح ابن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعدٍ إلا وفى به قال المفسرون : وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة[4] ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي كان

(١) المختصر ٢/٤٥٤ . (٢) الطبري ١٦/٩٣ . (٣) البحر ٦/١٩٩ . (٤) المختصر ٢/٤٥٦ .

﴿رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾

يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع **﴿وكان عند ربه مرضياً﴾** أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[١] **﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً﴾** أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحىً إليه من الله قال المفسرون : إدريس هو جدُّ نوح ، وأول مرسل بعد آدم ، وأول من خطَّ بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة **﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾** أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله[٢] **﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾** أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة ـ وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس ـ وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة **﴿من ذرية آدم﴾** أي من نسل آدم كإدريس **﴿وممن حملنا مع نوح﴾** كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح **﴿ومن ذرية إبراهيم﴾** كإسماعيل وإسحق ويعقوب **﴿وإسرائيل﴾** أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى **﴿وممن هدينا واجتبينا﴾** أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا **﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكياً﴾** أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسموِّ النفس ، والزلفى من الله تعالى ،قال القرطبي : وفي الآية دلالة على أن لآياتِ الرحمن تأثيراً في القلوب[٣] **﴿فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات﴾** أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء ، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات **﴿فسوف يلقون غياً﴾** أي سوف يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار ، قال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره[٤] **﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾** أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله **﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً﴾** أي فأولئك يُسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً **﴿جناتِ عدنٍ التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾** أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها

(١) الفخر الرازي ٢١/٢٣٢ . (٢) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .
(٣) القرطبي ١١/١٢٠ . (٤) القرطبي ١١/١٢٥ .

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلٌ لا يُخلف ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام ، لكنْ يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشياً﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا تنغص ولا انقطاع ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وما نتنزّل إلا بأمر ربك﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن والمعنى : ما نتنزّل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟ ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما فاعبدْه﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿واصطبرْ لعبادته﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هل تعلم له سمياً﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً ؟

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الكناية اللطيفة ﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾ كنّى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال ﴿لسان صدق﴾ كما يكنى عن العطاء باليد .

٢ ـ الاستعارة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ شبّه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة .

٣ ـ المبالغة ﴿صدّيقاً نبياً﴾ أي مبالغاً في الصدق .

٤ ـ الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿أولئك الذين أنعم﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم وبُعد منزلتهم في الفضل .

٥ ـ الجناس الناقص ﴿خَلَف من بعدهم خلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل .

٦ ـ الطباق ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ وبين ﴿بكرةً . . وعشياً﴾ .

٧ ـ السجع الحسن الرصين ﴿علياً ، حفياً ، نبياً﴾ .

فائدة : في قول إبراهيم عليه السلام « يا أبتِ » تلطفٌ واستدعاء ، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله « يا أبي » ولهذا لا يُجمع بينهما .

تنبيه : ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ، وبينه وبين آدم ألفا سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويقول الإنسان أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً . . إلى . . أو تسمع لهم ركزاً﴾ من آية (٦٦) إلى آية (٩٨) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار ، وكان الغرضُ الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء ، وإثباتُ يوم المعاد ، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء .

اللغة : ﴿جثيّاً﴾ جمع جاثٍ يقال : جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل قال الكُميت :

همُو تركوا سراتُهم جثيّاً وهم دُونَ السَّراة مقرَّنينا[1]

﴿عتيّاً﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿ندياً﴾ النديُّ والنادي : الذي يجتمع فيه القوم للتحدث والمشورة قال الجوهري : النديُّ مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بندي[2] ﴿أثاثاً﴾ الأثاث : متاع البيت ﴿رئياً﴾ منظراً حسناً ﴿تؤزهم﴾ الأزُّ : التهييجُ والإغراء ، قال أهل اللغة : الأزُّ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ومنه أزيز المِرجل وهو غليانه وحركته ﴿وفداً﴾ جمع وافد وهو الذي يقدم على سبيل التكرمة معزَّزاً مكرَّماً ﴿ورداً﴾ مشاةً عطاشاً قال الرازي : والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش[3] ﴿إداً﴾ منكراً عظيماً قال الجوهري : الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع ﴿ركزاً﴾ الركز : الصوت الخفي .

سبب النزول : عن خباب بن الأرت قال : كنتُ رجلاً قيناً ـ أي حداداً ـ وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيتُه أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد

(١) القرطبي ١١/١٣٣ . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ .

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

حتى تموت ثم تبعث ـ أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل ـ قال : فإني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمَّ مالٌ فأعطيتك فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينَّ مالاً وولداً﴾[1] .

التفسير : ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُخرج حياً﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد : أئذا متُّ وأصبحتُ تراباً ورفاتاً فسوف أُخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته[2] ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكّر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً﴾ أي أولاَ يتذكر هذا المكذِّب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ قال بعضُ العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذْ لا شكَّ أنَّ الإعادة ثانياً أهونُ من الإيجاد أولاً[3] ، ونظيره قوله ﴿قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿فوربك لنحشرنَّهم والشياطين﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم قال المفسرون : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنَّم جثياً﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثم لننزعنَّ من كل شيعة﴾ أي لنأخذنَّ ولننتزعنَّ من كل فرقةٍ وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿أيُّهم أشدُّ على الرحمن عتياً﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود : يُبدأ بالأكابر جرماً ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ أي ما منكم أحدٌ من بر أو فاجر ألاَّ وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي كان ذلك الورود[4] قضاءً لازماً لا يمكن خُلفه ﴿ثم نُنجّي الذين اتَّقوا﴾ أي ننجّي

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ص ١٧٣ . (٢) المختصر ٢/ ٤٦٠ . (٣) الفخر الرازي ٢١/ ٢٤١ .

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس : الورود الدخول ، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلاَّ دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط ، ولعل هذا القول أصح أجارنا الله من جهنم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾

من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿ونـذر الظالميـن فيهـا جثيـاً﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الركب قال البيضاوي : والآية دليلٌ على أن المراد بالورود الجثوُّ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم[1] ﴿وإذا تُتلـى عليهـم آياتنـا بينات﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات الإعجاز ، بينات المعاني ﴿قـال الذيـن كفـروا للذيـن آمنوا أيُّ الفريقيـن خيـرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين : ـ نحن أو أنتم ـ أحسنُ مسكناً، وأطيب عيشاً، وأكرم منتدى ومجلساً ؟ قال البيضـاوي : إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهـم من حظـوظ الـدنيا ، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم[2] ، فردَّ الله عليهـم بقولـه ﴿وكـم أهلكنـا قبلهـم من قـرن هـم أحسن أثاثـاً ورئيـاً﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجمل صورةً ومنظراً ، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين ، فلا يغترَّ هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿قـلْ من كان فـي الضلالـة فليمدد لـه الرحمـن مداً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة منا ومنكم فليمهله الرحمن فيما هو فيه ، وليدعْه في طغيانه ، حتى يلقى ربه وينقضي أجله قال القرطبي : وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد[3] ﴿حتـى إذا رأوا مـا يُوعـدون﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿إمَّـا العـذاب وإمَّـا الساعة﴾ أي إمَّا عذاب الـدنيا بالقتـل والأسر ، أو عذاب الآخـرة بمـا ينالهـم يوم القيامـة من الشدائـد والأهـوال ﴿فسيعلمـو ن مـن هو شرٌ مكاناً وأضعـفُ جنداً﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿خيـر مقاماً وأحسـن ندياً﴾ ﴿ويزيـد اللهُ الذيـن اهتـدوا هُدى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرةً وإيمانـاً وهداية ﴿والباقيـات الصالحاتُ خيـرٌ عنـد ربـك ثواباً﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وخيـرٌ مرداً﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أفرأيـت الـذي كفـر بآياتنـا وقال لأُوتينَّ

(١) البيضاوي ٢/ ١٩ . (٢) البيضاوي ٢/ ٢٠ . (٣) القرطبي ١١/ ١٤٤ .

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

مالاً وولـداً﴾ نزلت في العاص بن وائل[١] ، والاستفهام للتعجب أي تعجَّب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿اطَّلع الغيب﴾ أي هل اطَّلع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب ؟ ﴿أم اتَّخذ عند الرحمن عهداً﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ ﴿كلاّ سنكتب ما يقول﴾ ردٌّ عليه ، ولفظةُ « كلاّ » للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿ونمدُّ له من العذاب مداً﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾ أي ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزَّ والشرف ﴿كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزاً﴾ أي ألم تر يا محمد أنَّا سلَّطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم إغراءً بالشر ، وتهيّجُهم تهييجاً حتى يركبوا المعاصي قال الرازي : أي تغريهم على المعاصي وتحثُّهم وتهيّجهم لها بالوساوس والتسويلات[٢] ﴿فلا تعجلْ عليهم إنما نعُدُّ لهم عداً﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدُّها عليهم عداً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس : نعدُّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدُّ عليهم سنيَّهم[٣] ﴿يوم نحشرُ المتقينَ إلى الرحمن وفْداً﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزَّزين مكرَّمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث (يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتَحشُرُ بقيتهم إلى النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا)[٤] ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي لا يشفعون ولا يُشفع لهم ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من تحلَّى بالإيمان

(١) انظر سبب النزول المتقدم . (٢) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ . (٣) القرطبي ١١/ ١٥٠ . (٤) أخرجه الشيخان .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس : العهدُ « شهادة أن لا إله إلا الله » ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقولٍ منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿تكاد السموات يتفطّرن منه﴾ أي تكاد السموات تتشقّق من هول هذا القول ﴿وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبالُ هدّاً﴾ أي وتنشقُّ كذلك الأرض وتندكُّ الجبال وتُهدُّ هداً استعظاماً للكلمة الشنيعة ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو المنزَّه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير ﴿إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ أي ما من مخلوقٍ في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدٌ لله ، ذليلٌ خاضعٌ بين يديه ، منقادٌ مطيعٌ له كما يفعل العبيد ﴿لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ أي وكل فردٍ يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مالٍ ولا نصير ، ولا معين ولا خفير ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة قال الربيع : يحبُّهم ويحببهم إلى الناس ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتُنذر به قوماً لُدّاً﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ، لتبشّر به المؤمنين المتقين ، وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، و« كم » للتكثير ﴿هل تُحسُّ منهم من أحد﴾ أي هل ترى منهم أحداً ؟ ﴿أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

البــلاغــة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ ذكر العام وإرادة الخاص ﴿ويقول الإنسان﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث .

٢ ـ الطباق بين ﴿متُّ . . وحياً﴾ وبين ﴿تبشر . . وتنذر﴾ .

٣ ـ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أو لا يذكر الإنسان﴾ .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ .

٥ ـ الجناس غير التام ﴿وفداً . . ورداً﴾ لتغير الحرف الثاني .

٦ ـ اللف والنشر المرتب في ﴿شرٌ مكاناً وأضعف جنداً﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خيرٌ مقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وأحسن ندياً﴾ كما يوجد بين ﴿خيرٌ . . وشرٌ﴾ طباق .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه .

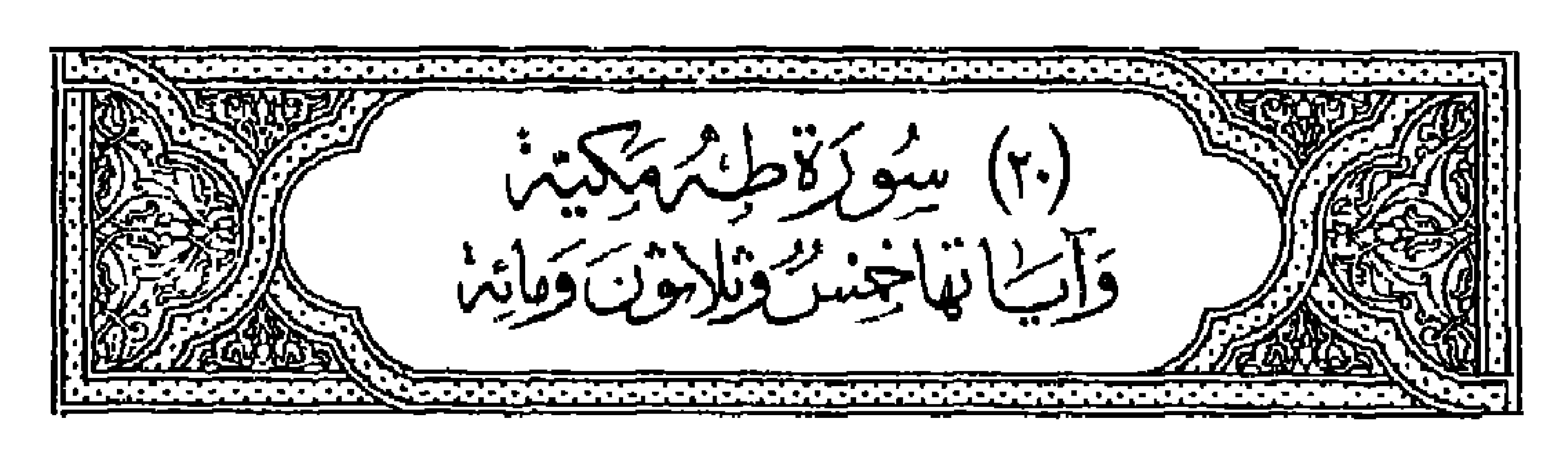
٨ ـ السجع الرصين مثل ﴿عبداً ـ عداً ، فرداً ، وُدّاً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

فـائـدة : أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء . .) الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ .

لطيفـة : روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عداً﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد قال الشاعر :

حياتــكَ أنفـاسٌ تُـعــدُّ فكلما ... مضـى نفَس منـك انتقصــت بـه جزءاً

« تم بعونه تعالى تفسيـر سورة مريم »



بين يدي السورة

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية ، وغرضُها تركيز أصول الدين « التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور » .

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ ، في شدّ أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولإرشاده إلى وظيفته الاساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان .

* عرضت السورة لقصص الأنبياء ، تسلية لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة « موسى وهارون » مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعايةُ الله لموسى ، نبيّه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين .

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر .

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هَلعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الذهولُ والسكون ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين .

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت « سورة طه » وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، تطييباً لقلبه ،

وتسليةً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ .

اللغــة : ﴿بقبس﴾ القَبَسُ : شعلةٌ من نار ﴿المقدَّس﴾ المطهَّر والمبارك ﴿طُوى﴾ اسم للوادي ﴿فتردى﴾ تهلك والردى : الهلاك ﴿أهشُّ﴾ أخبط بها الشجر ليسقط الورق ﴿مآرب﴾ جمع مأربة وهي الحاجة ﴿جناحك﴾ الجناح : الجَنب وجناحا الإنسان حنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أزْري﴾ الأزر : القوة يقال : آزره أي قوّاه ومنه﴿ فآزره فاستغلظ﴾قال الشاعر :

أليس أبونا هاشمٌ شدَّ أزْره وأوصى بَنيه بالطِّعان وبالضرب[1]

﴿اليمُّ﴾ البحر ﴿تقرَّ عينها﴾ تُسرَّ بلقائك .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ

التفسـير : ﴿**طـه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن[2] وقال ابن عباس : معناها يا رجل ، ومعنى الآية : ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة ، رُوي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلّى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية[3] ﴿**إلا تذكرةً لمن يخشى**﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه ، وهو المؤمنُ المستنير بنور القرآن ﴿**تنزيلاً ممن خلق الأرضَ والسموات العُلى**﴾ أي أنزله خالقُ الأرض ، ومبدعُ الكون ، ورافع السموات الواسعة العالية ، والآية إخبارٌ عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر : ووصفُ السموات بالعُلى دليلٌ على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوِّها من غيره تعالى[4] ﴿**الرحمنُ على العرْش استوى**﴾ أي ذلك الربُّ الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيمٍ ، ولا تشبيه ،ولا تعطيل ، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف[5] ﴿**له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كلّه : السمواتُ السبعُ ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكلُّ ملكُه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه أي وإن تجهرْ يا محمد بالقول أو ﴿**وإن تجهرْ بالقولِ فإنه يعلم السرَّ وأخفى**﴾

(١) البيت لأبي طالب وانظر القرطبي ١١/ ١٩٣ . (٢) انظر أول سورة البقرة . (٣) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/ ٢٦٨ .
(٤) البحر ٦/ ٢٢٦ . (٥) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعد .

حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

تخفه في نفسك فسواءٌ عند ربك ، فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر . . والغرضُ من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه ، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسرِّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿اللـهُ لا إلـه إلا هـو له الأسماء الحسنـى﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحُسن وفي الحديث (إن للّـهِ تسعةً وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنـة)[1] ﴿وهـل أتـاك حديث موسـى﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة ؟ ﴿إذْ رأى نـاراً فقـال لأهلـه امكثوا إني آنستُ نـاراً﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شَرَرٌ فبينما هو كذلك إذْ بصر بنارٍ من بعيد على يسار الطريق ، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿لعلـي آتيكـم منها بقَبـس﴾ أي لعلي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿أو أجـد علـى النار هـدى﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿فلمـا أتاهـا نُودي يا موسـى إني أنا ربُّـك فاخلع نعلَيْـك﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه يا موسى[2] : إني أنا ربُّك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأقْبل ﴿إنـك بالواد المقـدَّس طـوى﴾ أي فإنك بالوادي المطهَّر المبارك المسمّى طوى ﴿وأنـا اخترتـك فاستمـعْ لما يُـوحى﴾ أي اصطفيتك للنبوة فاستمع لما أُوحيه إليك قال الرازي : فيه نهايةُ الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهبْ له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه[3] ﴿إنّـني أنـا اللـهُ لا إلـه إلا أنـا فاعبدني﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿وأقـم الصـلاة لذكـري﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد : إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار[4] وقال الصاوي : خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلةً في جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر ، وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد[5] ﴿إن الساعـة آتيـةٌ أكـاد أخفيهـا﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلةٌ لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف

---

(١) أخرجه الترمذي . (٢) قال سيد قطب تغمده الله بالرحمة ، وجمَّل قاتليه باللعنة : إن القلب ليجفُ ، وإن الكيان ليرتجف ، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة ، والليل دامسٌ ، والظلام شامل ، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور ، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوي ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ الظلال ٥/ ٦٨ . (٣) الرازي ٢٢/ ١٩ . (٤) الرازي ٢٢/ ١٩ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٥٠ .

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا﴾

أطلعكم عليها[1] ؟ قال المبرِّد : وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لتُجْزى كلُّ نفسٍ بما تَسْعى﴾ أي لتنال كلُّ نفسٍ جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون : والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار ، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت ، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك ، فيتخلصون من العقاب ، ولكنَّ الله عمَّى الأمر ، ليظلَّ الناس على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فلا يَصُدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها﴾ أي لا يصرفنَّك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿واتَّبع هواه﴾ أي مالَ مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فتـرْدى﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى ؟ أليست عصا ؟ والغرضُ من الاستفهام التقريرُ والإيقاظُ والتنبيهُ إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية ، لتظهر لموسى القدرة الباهرة ، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي أمَا هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ؟ فسترى ما نصنع بها الآن[2] ؟ ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وأهُشُّ بها على غنمي﴾ أي أهزُّ بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿ولي فيها مآربُ أُخرى﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أُخَر غير ذلك قال المفسرون : كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة ، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب ، وكلام الحبيب مريحٌ للنفس ومُذْهبٌ للعَناء ﴿قال أَلْقِها يا موسى﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى ! ﴿فألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحركُ في غاية السرعة قال ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيءٍ خافه ونفر منه وولّى هارباً[3] قال المفسرون : لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف ، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول ، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرَّب وتعوَّد ﴿قالَ خذْها ولا تخَف﴾ أي قال له ربه : خذْها يا موسى ولا تخفْ منها ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حيَّة ، فأمسكها

(١) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٦/٢٣٢ . (٢) المختصر ٢/٤٧٢ . (٣) القرطبي ١١/١٩٠ .

سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

فعادت عصا ﴿واضمُمْ يدكَ إلى جناحِك تخْرُجْ بيضاء من غيـر سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيِّرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال ابن كثير : كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى[١] ﴿آيـةً أخـرى﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿لنريـك من آياتنـا الكبـرى﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة . . أراه الله معجزتين « العصا ، واليد » وهي بعض ما أيَّده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿إذْهـب إلى فرعـون إنه طغـى﴾ أي إذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبَّر وتجبَّر وجاوز الحدَّ في الطغيان حتى ادَّعى الألوهية ﴿قـال ربِّ اشرحْ لـي صدري﴾ أي وسِّعْه ونـوِّره بالإِيمان والنبوّة ﴿ويسِّـرْ لـي أمـري﴾ أي سهِّلْ عليَّ القيام بمـا كلفتني من أعباء الرسالـة والدعـوة ﴿واحلُـلْ عُقْـدةً من لساني يفْقهوا قـوْلي﴾ أي حلَّ هذه اللُّكْنـة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي قال المفسرون : عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حِجْرِهِ وهو صغير فجرَّ لحية فرعون بيده فهمَّ بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك ، قدِّمْ إليه جمرتين ولؤلؤتين ، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل ، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل ، فقدَّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حَبْسة[٢] ﴿واجعـلْ لـي وزيراً مـن أهلـي هارونَ أخـي﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدني ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿أشدُدْ به أزري﴾ أي لتقوِّي به يا رب ظهري ﴿وأشركه في أمـري﴾ أي اجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كـيْ نسبحـك كثيراً * ونذكـرك كثيـراً﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إنـك كنـتَ بنـا بصيـراً﴾ أي عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا ، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشدُّ به أزره ، لما يعلم منه من فصاحة اللسان ، وثبات الجنَان ، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعـون وتكبـره وجبروته ﴿قـال قد أُوتيـتَ سُؤْلـك يا موسـى﴾ أي أُعطيت ما سألتَ وما طلبتَ ، ثـم ذكَّره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿ولقـد مننَّـا عليـك مـرةً أخـرى﴾ أي أنعمنـا عليك يا موسى بمنَّة أخرى غير هذه المنة ﴿إذْ أوحينـا إلى أمِّـك ما يُوحـى﴾ أي ألهمناها ما يُلهم ممَّا كان سبباً في نجاتك ﴿ أنِ اقـذفيه في التـابـوت

(١) المختصر ٢/ ٤٧٣ . (٢) انظر الطبري ج١٦/ ١٥٩ وقيل كان ذلك خلقة فسأل الله تعالى إزالته .

أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

فاقذفيـه في اليـمّ﴾ أي ألهمناها أن ألقِ هذا الطفل في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل ، ثم ماذا ؟ ومن يتسلمه ؟ ﴿فلْيلقـه اليـمُّ بالساحـل يأخذْه عـدوٌّ لـي وعدوٌّ له﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوُّه قال في البحر : ﴿فلْيُلْقـه﴾ أمرٌ معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذْ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها[1] ﴿وألقيتُ عليـك محبـةً منـي﴾ أي زرعتُ في القلوب محبتـك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبَّك فرعون قال ابن عباس : أحبَّه الله وحبَّبه إلى خلقه ﴿ولتُصنع علـى عينـي﴾ أي ولتُربّى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿إذ تمشـي أختـك فتقول هل أدلكـم على من يكفلـه﴾ أي حين تمشي أختك وتتّبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع :هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته ؟ قال المفسرون : لمّا التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرَّم عليه المراضع وبقيت أُمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتّبع خبره ، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت: هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل ؟ فطلبوا منها إحضارها فأتت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها : كوني معي في القصر فقالت : لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكنْ آخذه معي وآتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنت إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿فرجعنـاك إلى أمـك كـيْ تقرَّ عينهـا ولا تحـزن﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسرَّ بلقائـك ، وتطمئن بسلامتك ونجاتك ، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وقتلـت نفساً فنجينـاك مـن الغـم﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شاباً فنجيناك من غمّ القتل وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته ، وفي صحيح مسلم : وكان قتله خطأً ﴿وفتنّـاك فتوناً﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواعٍ من المِحن ﴿فلبثـت سنيـنَ في أهـل مَدْيـن﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثـم جئتَ علـى قَـدرٍ يـا موسى﴾ أي جئت على موعدٍ ووقت مقدر للرسالة والنبوة .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشويق والحث على الإصغاء ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ ؟

٢ ـ الإطناب ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمي﴾ وكان يكفي أن يقـول : هي عصاي ولكنه توسَّع في الجواب تلذذاً بالخطاب .

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٤١ .

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة .

٤ ـ الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بيضاء من غير سوء﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بيضاء﴾لأوهم أن ذلك من بَرص أو بهَق ولذلك احترس بقوله ﴿من غير سوء﴾ .

٥ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ولتُصنع على عيني﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر .

٦ ـ السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات ﴿فتشقى ، يخشى ، أخفى ، تسعى﴾ الخ .

فـائـدة : قال العلماء : ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هرون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلاً .

تـنـبيـه : ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدَّد منها ستاً :

المنة الأولى : إلهام أُمه صنع الصندوق وإلقاءه في النيل ليربّى في بيت فرعون ﴿إذْ أوحينا إلى أمك ما يوحى أنِ اقذفيه في التابوت﴾ .

الثانية : إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وألقيت عليك محبةً مني﴾ .

الثالثة : حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿ولتُصْنع على عيني﴾ .

الرابعة : ردُّه إلى أُمه مع الإنعام والإكرام ﴿فرجعناك إلى أُمك كي تقرَّ عينها﴾ .

الخامسة : إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿ونجيناك من الغمّ﴾ .

السادسة : تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة﴿ثم جئتَ على قدرٍ يا موسى﴾

* * *

قال الله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسي . . إلى . . وذلك جزاء من تزكى﴾
من آية (٤١) إلى نهاية آية (٧٦) .

المنـاسـبة : لمّا ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤْله ، ذكر هنا ما خصَّه به من الاصطفاء والاجتباء ، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله ، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين .

اللغــة : ﴿اصطنعتك﴾ اصطفيتك واخترتك ، وأصل الاصطناع : اتخاذ الصَّنيعة وهو الخير تُسْديه إلى إنسان ﴿تنيا﴾ الونى : الضَّعف والفتور قال العجَّاج :

فما ونى محمدٌ مُذْ أنْ غفرْ لـه الإلـهُ ما مضَى وما غبَـر[1]

﴿يفرُط﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا ، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿يُسْحتكم﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشَّعْر قال الفرزدق :

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يَدعْ من المال إلا مُسْحتٌ أو مجلَّف[2]

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب ، والسُّحت : المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمّره ﴿النجوى﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿أوجس﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه .

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ﴾

التفسير : ﴿واصطنعتكَ لنفسي﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيي ﴿اذهب أنتَ وأخوك بآياتي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون : المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيّد الله بها موسى ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ أي لا تفترا وتقصّرا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير : والمراد ألاّ يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له[3] ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبَّر وتكبَّر وبلغ النهاية في العتُو والطغيان ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿لعلّه يتذكر أو يخشى﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قالا ربَّنا إننا نخافُ أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجِّل علينا العقوبة ، أو يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما ، وأرى ما يفعل بكما ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك ، وتخصيصُ الذكر بلفظ ﴿ربّك﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبدٌ مملوك لله إذْ كان يدَّعي الربوبية ﴿فأرسلْ معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم﴾ أي أطلقْ سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿والسلام على من اتَّبع الهدى﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله قال المفسرون : لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب

(١) الطبري ١٦/١٦٨ . (٢) القرطبي ١١/٢١٥ . (٣) المختصر ٢/٤٨٢ .

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً﴾

الله وسخطه ﴿إنَّا قد أُوحي إلينا أنَّ العذاب على من كذَّب وتولَّى﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كذَّب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ أي قال فرعون: ومنْ هذا الربُّ الذي تدعوني إليه يا موسى؟ فإني لا أعرفه؟ ولم يقل: من ربّي لغاية عتوّه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿من ربكما﴾ ﴿قال ربُّنا الذي أعطى كل شيءٍ خلْقه ثم هدى﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيءٍ خَلْقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأُذُن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري: ولله درُّ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية؟ لِم لَمْ يُبعثوا ولم يُحاسبوا إن كان ما تقول حقاً؟ قال ابن كثير: لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدَّر فهدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى كأنه يقول: ما بالهم إذْ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربَّك بل عبدوا غيره؟[1] ﴿قال علمها عند ربي في كتاب﴾ أي قال موسى: علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿لا يضلُّ ربي ولا ينسى﴾ أي لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها.. ثم شرع موسى يبيّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿الذي جعل لكم الأرض مهْداً﴾ أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿وسلَك لكم فيها سُبُلاً﴾ أي جعل لكم طُرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿وأنزَل من السماء ماءً﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطرَ عذباً فراتاً ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتَّى﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كلُّ صنف منها زوج، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كلوا وارْعوا أنعامكم﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنِّعم ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ أي من الأرض

(١) المختصر ٢/٤٨٣.

أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿ومنها نُخرجكم تارةً أُخرى﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب . . ثم أخبر تعالى عن عتوِّ فرعون وعناده فقال ﴿ولقد أريناه آياتنا كلَّها﴾ أي والله لقد بصَّرْنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوّة موسى من العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، وسائر الآيات التسع ﴿فكذَّب وأبى﴾ أي كذَّب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر ، وأبى الإِيمان والطاعة لعتوِّه واستكباره ﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ أي قال فرعون : أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر ؟ ﴿فلنأتينَّك بسحرٍ مثله﴾ أي فلنعارضنَّك بسحرٍ مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولستَ برسول ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي عيِّنْ لنا وقت اجتماع ﴿لا نُخْلفه نحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوًى﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيَّن ووقت معيَّن[1] ﴿قال موعدكم يومُ الزينة وأن يُحْشر الناسُ ضُحى﴾ أي قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد ـ يومٌ من أيام أعيادهم ـ وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون : وإِنما عيَّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد ، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿فتولَّى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى﴾ أي انصرف فرعون فجمع السَّحرة ثم أتى الموعد ومعه السَّحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفىء نور الله قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ[2] ﴿قال لهم موسى ويلكمْ لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وقد خاب من افترى﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله . . قدَّم لهم النصح والإِنذار لعلَّهم يثوبون إلى الهُدى ، ولما سمع السَّحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعتْ في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النجوى﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً ﴿قالوا إِنْ هذانِ لساحرانِ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إِلاّ ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإِخراجكم منها بهذا السحر

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مكاناً سُوى﴾ واختار الطبري أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين . (٢) القرطبي ١١/٢١٤ .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا﴾

﴿ويذهبا بطريقتكم المُثْلى﴾ أي غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿إنْ هذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطاً للناس من اتباعهما[1] ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً﴾ أي أحْكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوسٍ واحدة ، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿ قالوا لفرعون أئنَّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ ﴿ قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقي وإمّا أنْ نكون أولَ من ألقى﴾ أي قال السحرة لموسى : إمّا أن تبدأ أنتَ بالإلقاء أو نبدأ نحنُ ؟ خيَّروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قال بل ألقوا﴾ أي قال لهم موسى : بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال أبو السعود : قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسنَ من أدبهم حيث بتَّ القول بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليُبرزوا ما معهم ، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم ، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[2] ﴿فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيُّ التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنُّها ـ من عظمة السحر ـ أنها حياتٌ تتحرك وتسعى على بطونها ، والتعبيرُ يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾ أي أحسَّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿قلنا لا تخف إنَّك أنتَ الأعلى﴾ أي قلنا لموسى لا تخفْ ممّا توهمت[3] فإنك أنت الغالب المنتصر ﴿وألقِ ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا﴾ أي ألقِ عصاك التي بيمينك تبتلعْ بفمها ما صنعوه من السحر ﴿إنما صنعوا كيدُ ساحر﴾ أي إنَّ الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلِّل ﴿فأُلقي السحرة سُجَّداً قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخرَّ السحرة حينئذٍ سجداً لله ربِّ العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير : لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعُنق ورأس

(١) الكشاف ٣ . (٢) أبو السعود ٣/ ٣١٣ . (٣) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول .

﴿رَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾

وأضراس ، فجعلت تتّبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعته ، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهاراً ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حقٌّ لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة[1] ﴿قال آمنتم له قبل أنْ آذن لكم﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني ؟ ﴿إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾ أي إنه رئيسكم الذي علّمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال القرطبي : وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يُلبِّس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤ منوا كإيمانهم[2] ، ثم توعّدهم وهدّدهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿فلأُقطّعنَّ أيديكم وأرْجلكم من خلاف﴾ أي فوالله لأقطعنَّ الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿ولأُصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شرَّ قِتْلة ﴿ولتعلمُنَّ أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ أي ولتعلمُنَّ أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم ربُّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم ﴿قالوا لن نُؤثِرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي قال السحرة: لن نختارك ونفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿والذي فطرنا﴾ قسمٌ بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا ﴿فاقضِ ما أنتَ قاض﴾ أي فاصنع ما أنت صانع ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا[3] ﴿إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله ﴿والله خيرٌ وأبقى﴾ أي والله خيرٌ منك ثواباً وأبقى عذاباً ، وهذا جوابُ قوله ﴿ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾ ﴿إنه من يأتِ ربه مجرماً فإنَّ له جهنم﴾ هذا من تتمة كلام السحرة عظةً لفرعون أي من يلقى ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر ، فإن له نار جهنم ﴿لا يموتُ فيها ولا يحيا﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة[4] ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل

(١) المختصر ٢/ ٤٨٦ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٢٤ . (٣) القرطبي ١١/ ٢٢٥ .
(٤) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى : ألاَ مَنْ لنفسٍ لا تموتُ فينقضي شقاهـا ولا تحيا حياةً لهـا

مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الصالحات﴾ أي ومن يلقى ربه مؤمناً موحّداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جناتُ عدن﴾ بيانٌ للدرجات العُلى أي جناتُ إقامة ذات الدرجات العاليات ، والغُرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وسُرُرها أنهار الجنة من الخمر والعسل ، واللّبن ، والماء ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وذلك جزاء من تزكّى﴾ أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجةً فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس)[1] .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ شبَّه ما خوّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه ، ويختاره لخلَّته ، ويصطفيه لأموره الجليلة واستعار لفظ اصطنع لذلك ، ففيه استعارةٌ تبعية .

٢ ـ المقابلة اللطيفة ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ حيث قابل بين ﴿منها﴾ و﴿فيها﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية .

٣ ـ إيجاز حذف ﴿بل ألقوا فإذا حبالهُم﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فأُلقي السحرة سجداً﴾ بعد قوله ﴿وألْق ما في يمينك﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فأُلقي السحرة سجداً ، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف .

٤ ـ الطباق بين ﴿يموت . . ويحيا﴾ وبينَ ﴿نعيد . . ونخرج﴾ .

٥ ـ المقابلة بين ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ وبين ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ الخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك .

٦ ـ السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سُوى ، ضُحى ، افترى ، يحيا ، تزكّى﴾ الخ .

٧ ـ المؤكدات ﴿إنك أنت الأعلى﴾ أكّد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إنَّ﴾ المفيدة للتأكيد ، وتكرير الضمير﴿أنت﴾وتعريف الخبر﴿الأعلى﴾ولفظ العلو الدال على الغلبة،وصيغة التفضيل﴿الأعلى﴾ولله

(١) رواه أحمد والترمذي .

در التنزيل ما أبلغه وأروعه ، وهذا من خصائص علم المعاني .

تنبيه : لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هدَّدهم به ، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بَرَرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى . . إلى . . إلا هو وسع كل شيء علماً﴾
من آية (٧٧) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون ، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه ، وإنجائهم وإهلاك عدوهم ، وتذكّرهم بنعم الله العظمى ومننه الكبرى على بني إسرائيل ، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها ، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل ، وقد طوى هنا ما فصَّل في آيات أخر .

اللغة : ﴿دَرَكاً﴾ لحَاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿تَطغوا﴾ الطغيان : مجاوزة الحدِّ إلى ما لا ينبغي ﴿هوى﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي إذا سقط من علوٍ إلى سفل ﴿بمِلْكنا﴾ الملك : بفتح الميم وسكون اللام : الطاقةُ والقدرة ومعناه بأمرٍ كنا نملكه من جهتنا ﴿أوزاراً﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿خوار﴾ الخُوار : صوت البقر ﴿يا ابن أُمَّ﴾ أي يا ابن أمي واللفظة تدل على الاستعطاف ﴿سوّلت﴾ حسَّنت وزيَّنت .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

التفسير : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسْرِ بعبادي﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أنْ سرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿فاضربْ لهم طريقاً في البحر يَبساً﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه ﴿لا تخاف دَركاً ولا تخشى﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿فأتْبعهم فرعونُ بجنوده فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم ، وغشيهم من الأهوال ما لا يعلم كُنهه إلا الله ، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغَرق ﴿وأضلَّ فرعونُ قومه وما هدى﴾ أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة ، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ خطابٌ لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون

قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

منفعتها راجعة إليهم إذْ في نزول التوراة صلاحُ دينهم ودنياهم ﴿ونزَّلنا عليكم المنَّ والسلوى﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمنِّ وهو يشبه العسل ، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم . . وفي هذا الترتيب غايةُ الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء ، ثم بالنعمة الدينية ، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم ﴿ولا تطْغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي ﴿ومن يحلِلْ عليه غضبي فقد هوى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وإني لغفَّار لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسُن إيمانه وعمله ، ثم استقام على الهدى والإيمان ، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كيلا ييأس ﴿وما أعجلكَ عن قومك يا موسى﴾ أيْ أيُّ شيءٍ عجَّل بك عن قومك يا موسى ؟ قال الزمخشري : كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه[1] ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وعجلتُ إليكَ ربِّ لترضى﴾ أي وعجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضىً عني . . اعتذر موسى أولاً ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله ﴿قال فإنّا قد فتنَّا قومك من بعدك﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وأضلَّهم السامري﴾ أي وأوقعهم السامريُّ في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل ، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون : كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامريُّ الحليَّ ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفاً﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾

(١) الكشاف ٣/ ٨٩ .

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا

أي ألم يعدُكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي ؟ قال أبو حيان : وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام ، ولا يخالفوا أمر الله أبداً ، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل[1] ﴿قالوا ما أخْلفنا موْعدك بمِلْكِنا﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حُليٍّ آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد : أوزاراً : أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون : كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحُليّ قبل خروجهم من مصر ، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري : إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري ، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور[2] فذلك قوله تعالى ﴿فأخرج لهم عجلاً جسَداً له خوار﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحليّ المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر[3] ﴿فقالوا هذا إلهكُم وإلهُ موسى فنَسي﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور ، قال قتادة : نسي موسى ربه عندكم ، فعكفوا عليه يعبدونه ، قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿أفلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردُّ لهم جواباً ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ يا قوم إنما فُتِنْتُم به﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم : إنما ابْتُليتُم وأُضللتم بهذا العجل ﴿وإنَّ ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني وأطيعوا أمري﴾ أي وإنَّ ربكم المستحقُّ للعبادة هو الرحمن لا العجل ، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله ، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجع إلينا

---

(١) البحر ٦/٢٦٨ . (٢) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/٢٠٠ . (٣) قال الرازي : قيل إنه صار حياً وخار ، وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل . الرازي ٢٢/١٠٣ .

مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ

موسى﴾ أي قالوا لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر[1] ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتّبِعن﴾ ؟ في الكلام حذفٌ أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلأ غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له : أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال ؟ ﴿أفعصيتَ أمري﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ قال المفسرون : وأمرهُ هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿وقال موسى لأخيه هرون اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتَّبع سبيل المفسدين﴾ ﴿قال يا ابنَ أُمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا برأسي﴾ أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً : يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغيْرة في الله ملكتْه ﴿إني خشيتُ أن تقولَ فرَّقتَ بين بني إسرائيل﴾ أي إني خفت إن زجرتُهم بالقوة أن يقع قتالٌ بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي : لقد أشعلتَ الفتنة بينهم ﴿ولم ترقُبْ قولي﴾ أي لم تنتظرْ أمري فيهم ، فمن أجل ذلك رأيتُ ألاّ أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له ﴿قال فما خطبُك يا سامري﴾ أي ما شأنك فيما صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟ ﴿قال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به﴾ أي قال السامريُّ : رأيتُ ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيتُه على شيءٍ إلا دبَّت فيه الحياة ﴿فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتُها﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿وكذلك سولَتْ لي نفسي﴾ أي وكذلك حسَّنتْ وزيَّنتْ لي نفسي ﴿قال فاذهبْ فإن لك في الحياة أن تقول لا مِساس﴾ أي قال موسى للسامريّ : عقوبتك في الدنيا ألاّ تمسَّ أحداً ولا يمسَّك أحد قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماسَّ الناسَ ولا يمسّوه عقوبة له في الدنيا وكأنَّ الله عز وجل شدَّد عليه المحنة ﴿وإنَّ لك موعداً لن تُخْلفه﴾ أي وإنَّ لك

(١) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال « ما كاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر ، وبلادة روح قالوا ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق الى ربه وضل عنه ، وهي قولة تضيف الى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه ، وهذا العجل لم يكن حياً يسمع قولهم ويستجيب نداءهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية ، ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة التووا وتملصوا من نصحه».

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلَّف ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لنحرّقنَّه ثم لننسفنَّه في اليمّ نسفاً﴾ أي لنحرقنَّه بالنار ثم لنطيرنَّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربَّ سواه ﴿وسع كلَّ شيءٍ علماً﴾ أي وسع علمه كلَّ شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التهويل ﴿فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿وأضلَّ . . وما هدى﴾ .

٣ ـ الاستعارة ﴿فقد هوى﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من عُلوٍ إلى سُفل للهلاك والدمار .

٤ ـ صيغة المبالغة ﴿وإني لغفَّار﴾ أي كثير المغفرة للذنوب .

٥ ـ الطباق ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ .

٦ ـ الايجاز بالحذف في مواطن عديدة بيناها في التفسير .

٧ ـ السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أمري ، قولي ، نفسي﴾ و ﴿نفعاً ، علماً ، نسفاً﴾ الخ .

تـنـبـيـه : إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامريّ وقد كانت بذور الوثنية راسخة في قلوبهم ولذلك لما نجَّاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون﴾ فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق . . إلى . . من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية السورة .

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل ، أعقبها بذكر أنَّ هذا القصص وحيٌ من الله ، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه ، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة .

اللغـــة : ﴿قاعاً﴾ القاع : الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صفصفاً﴾ الصَّفصفُ : المستوي من الأرض كأنه على صفٍ واحد في استوائه ﴿أمتاً﴾ الأمْت : المكان المرتفع كالتلّ والهضبة ﴿همْساً﴾ صوتاً خفياً ﴿عَنَتْ﴾ ذلَّت وخضعت قال أميّة : « لعزَّته تعنو الوجوه وتسجد » قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلَّ وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وعنت الوجوه﴾ ﴿هضماً﴾ الهضم : النقص يقال : هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضمُ المنع من بعضه[1] ﴿تضْحى﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرُّها قال ابن أبي ربيعة :

رأتْ رجلاً أيماً إذا الشمسُ عارضتْ ... فيَضْحـى وأمَّا بالعشيِّ فينحصر[2]

﴿ضنكاً﴾ الضَّنْك : الضيق والشدة يقال : منزلٌ ضنْك وعيشٌ ضنْك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سوآتهما﴾ عوراتهما ﴿فتربصوا﴾ انتظروا ﴿الصراط السويّ﴾ الطريق المستقيم .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

التفسيـــر : ﴿كذلـك نقُـصُّ عليـك من أنبـاء ما قـد سبـق﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وقـد آتينـاك مـن لدنّـا ذكـراً﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منطوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر : امتن تعالى عليه بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار ، الدال على معجزات أُوتيها عليه السلام[3] ﴿مـن أعرض عنـه فإنــه يحمــل يـوم القيامـة وزراً﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتَّبع ما فيه ، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً ، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿خالـديـن فيــه وسـاء لهـم يـوم القيامة حمــلاً﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم ، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم ، شُبِّه الوزرُ بالحمـل لثقلـه ﴿يوم ينفـخ في الصــور ونحشر المجرمـين يومئـذٍ زُرقـاً﴾ أي يوم ينفـخ إسرافيل في الصـور النفخـة الثـانية، ونحشر المجرمـين إلى أرض المحشر زُرق العيون سود الوجوه قال القرطبي: تُشوه خلقتُهم بزرقـة العيون وسـواد الوجـوه[4] ﴿يتخافتـون بينهـم إن لبثتـم إلا عشراً﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود : استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال[5] ﴿نحـن أعلم بما يقولـون إذ يقول أمثلُهـم طريقةً إن لبثتـم إلا يومـاً﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً

(١) القرطبي ١١/ ٢٤٩ . (٢) البحر ٦/ ٢٧١ . (٣) البحر المحيط ٦/ ٢٧٨ . (٤) القرطبي ١١/ ٢٤٤ . (٥) أبو السعود ٣/ ٣٢٤ .

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم . إن ربي يفتِّتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيّرها ﴿فيذرها قاعاً صفصفاً﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتاً﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً ﴿يومئذٍ يتَّبعون الداعي لا عوج له﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتَّبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وخشعت الأصواتُ للرحمن﴾ أي ذلَّت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فلا تسمعُ إلا همساً﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس : هو همسُ الأقدام في مشيها نحو المحشر[١] ﴿يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلاّ لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، ورضي لأجله شفاعة الشافع ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ﴿يعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿ولا يُحيطون به علماً﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا[٢] ﴿وعنَت الوجوه للحيِّ القيوم﴾ أي ذلت وخضعتْ وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري : المراد بالوجوه وجوهُ العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوهُهم عانيةً أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العُناة وهم الأسارى كقوله ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[٣] ﴿وقد خاب من حمل ظُلماً﴾ أي خسر من أشرك بالله ، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿ومن يعملْ من الصالحات وهو مؤمنٌ﴾ أي من قدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا

(١) الطبري ١٦/ ٢١٤ . (٢) وقيل المراد : لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل .
(٣) الكشاف ٣/ ٩٢ .

﴿اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ﴾

محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿وصرَّفنا فيه من الوعيد﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لعلهم يتقون أو يُحدث لهم ذكراً﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿ولا تعْجل بالقرآنِ من قبل أنْ يُقضى إليك وحيه﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه ، بل استمعْ إليهِ واصبر حتى يفرغَ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لا تحرِّكْ به لسانك لتعجلَ به﴾[1] ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ أي سلْ الله عز وجل زيادة العلم النافع قال الطبري : أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم[2] ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فنسي ولم نجدْ له عزْماً﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عمّا نهيناه عنه ﴿وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضّله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحيةٍ وتكريم فامتثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي : كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعلياً للعباد امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم[3] ﴿فقلنا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك﴾ أي ونبهنا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان ، وإنما اقتصر على شقائه مراعاةً للفواصل ولاستلزام شقائهِ لشقائها قال ابن كثير : المعنى إيّاك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيشٍ رغيد ، بلا كلفةٍ ولا مشقة[4] ﴿إنَّ لكَ ألاَّ تجوع فيها ولا تعْرى﴾ أي إنَّ لك يا آدم ألاَّ ينالك في الجنة الجوعُ ولا العريُ ﴿وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضْحى﴾ أي ولك أيضاً ألاَّ يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس ، لأن الجنة دار السرور والحبور ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ أي حدثّه خفيةً بطريق

(١) القرطبي ١١/ ٢٥٠ . (٢) الطبري ١٦/ ٢٢٠ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٦٦ . (٤) المختصر ٢/ ٤٩٦ .

هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ

الوسوسة ﴿قال يا آدمُ هلْ أدُلُّك على شجرة الخُلْد ومُلْكٍ لا يَبْلى﴾ أي قال له إبليس اللعين : هل أدلك يا آدم على شجرةٍ من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً ، ونال المُلك الدائم الذي لا يزول أبداً ؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً ؟ ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس : عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما[١] ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿وعصى آدمُ ربه فغوى﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلَّ عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدوّ قال أبو السعود : وفي وصفه بالعصيان والغواية ـ مع صغر زلته ـ تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها[٢] ﴿ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرَّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوٌّ﴾ أي قال الله لآدم وحواء : إنزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعضُ ذريتكما لبعض عدوٌّ بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري : لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم[٣] ﴿فإمَّا يأتينَّكم مني هدى﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿فمن اتَّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يَشْقى﴾ أي فمن تمسَّك بشريعتي واتَّبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألاّ يضلَّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية[٤] ﴿ومَن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسيةً شديدة وإن تنعَّم ظاهره ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير : من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيِّقٌ حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك ، وقيل : يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[٥] ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً﴾ أي قال الكافر : يا رب بأي ذنبٍ عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً ؟ ﴿قال كذلك أتتْك آياتُنا فنسيتها

(١) أبو السعود ٣/٣٢٧ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) الكشاف ٣/٩٣ . (٤) القرطبي ١١/٢٥٨ . (٥) المختصر ٢/٤٩٧ .

بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ

وكذلك اليوم تُنسى﴾ أي قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميتَ عنها وتركتها ، وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يُؤمن بآيات ربه﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدّق بكلام ربه وآياته البينات ﴿ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون ؟ ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعبراً لذوي العقول السليمة ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمًّى﴾ أي لولا قضاءُ الله بتأخير العذاب عنهم ووقتٌ مسمًّى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم قال الفراء : في الآية تقديم وتأخيرٌ والمعنى ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم ، وإنما أخَّره لتعتدل رءوس الآي[1] ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ومن آناءِ الليل فسبّح وأطراف النهار﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿لعلَّك ترضى﴾ أي لعلَّك تُعطى ما يرضيك قال القرطبي : أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿قبلَ طلوع الشمس﴾ صلاة الصبح ﴿وقبل غروبها﴾ صلاة العصر ﴿ومن آناءِ الليل﴾ صلاة العشاء ﴿وأطراف النهار﴾ صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير[2] ﴿ولا تمُدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ أي زينة الحياة الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿ورزقُ

(١) زاد المسير ٥/ ٣٣٣ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٦١ .

﴿الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

ربك خيرٌ وأبقى﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أُمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبة فيما عند الله ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿والعاقبة للتقوى﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله[1] ﴿وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربه﴾ أي قال المشركون هلاّ يأتينا بمعجزة تدل على صدقه ؟ ﴿أولم تأتهم بيّنةُ ما في الصحف الأولى﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة[2] ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذابٍ من قبله﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ أي لقالوا يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتّبعه ﴿فنتّبع آياتك من قبل أنْ نذلَّ ونخزى﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذلّ بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون : أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿قل كلٌ متربصٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين كلٌ منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿فتربصوا﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السويّ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم ؟ ﴿ومن اهتدى﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال القرطبي : وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة[3] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه ﴿كذلك نقص عليك﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل .

(١) المختصر ٢/٥٠٠ . (٢) البحر المحيط ٦/٢٩٢ . (٣) القرطبي ١١/٢٦٥ .

٢ ـ الاستعارة ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ شبَّه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية .

٣ ـ الكناية ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة .

٤ ـ الطباق بين ﴿أعمى . . وبصيراً﴾ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ مثَّل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا .

٦ ـ الوعيد والتهديد ﴿فتربصوا﴾ .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

٨ ـ السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظلماً ، هضماً ، علماً﴾ ومثل ﴿تشقى ، تعرى ، ترضى﴾ الخ . . .

لطيفة : قال الناصر : في الآية سرٌ بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة ، على أن في الآية سراً آخر وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رءوس الآي[١] .

فائدة : قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عشراً﴾ أو ﴿يوماً﴾ أو ﴿ساعة﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه ، بل المراد أنه لسرعة زواله عبَّر عن قلته بما ذكر ، فتفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به[٢] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة طه » .

* * *

(١) حاشية الكشاف ٣/ ٩٤ . (٢) حاشية الشهاب على البيضاوي .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِيْ السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلهِ تعَالى

يُوزع مجـانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقفًا للهِ تعالى

يوزع مجانًا ولا يُباع

